من دفاتر
أوجين يونسكو

يذهب فرويد الى ان العقبات الثلاث التي تحول بيننا وبين الحرية هي القلق والشفقة والقرف . هذا اذاً هو غلتنا الثلث . ونحن نعلم ايضا بان علم التحليل النفساني لا يهتم باصدار احكام خلقية . فالامور هي كما هي – وهذا وحده المهم . وواجبنا الوحيد هو ان نعرف سبب كون الامور على هذه الشاكلة وما الذي اوصلها الى هذه المرحلة الخاصة. اذ ان هذا العلم يكتفي بالقاء ضوء على الامور دون ان يصدر احكاما عليها . بل هو يفسر لماذا نصدر احكاما ، دون ان يحكم على هذه الاحكام نفسها .

ولكن غلنا الذي يقيدنا في الواقع هو رباعي ، ان لم نقل خماسيا : فالكراهية او التحدي العدواني هو ايضا مانع للحرية ، ولكن قد يقال بان الكراهية ان هي الا قرف عنيف ليس الا . على ان الشهوة هي العقبة الكبرى في سبيل تحريرنا. وهكذا نرى بان فرويد يلتقي هنا بطريقة ما مع البوذية . ليس مع « بوذية الزين » ، لان الرغبة في التحرر هي ما برحت فعل مشيئة . فعلى المرء ان يرغب في التحرر كيما يتوصل الى النقطة التي لا يشاء فيها حتى ان يتحرر .

ويلوح الشبه بين البوذية وفكرة فرويد اكثر احتمالا اذا نحن ذكرنا بان فرويد اكتشف في اواخر حياته وأكد بان الكائن منا يحمل في طياته غريزة الموت ونشدان الراحة، او «غريزة النيرفانا»، حسب تعبيره هو .

ان الشهوة او « الايروس » هي التي تمكننا من الحياة . فاذا نحن توصلنا الى القاء ضوء على الشهوة ونزعنا عنها وعن كل الشهوات ، اي عن سائر مظاهر الشهوة، اسرارها وبينا اسبابها والغازها، فان هذه الشهوات ستضمحل. واذا نحن توصلنا الى معرفة الاسباب الحقيقية لدوافعنا فلن تعود هناك دوافع لاي شيء. وستنحل الروابط والعقد ، وسنستسلم الى اللامبالاة والانعدام . وستقودنا اللامبالاة الى تحمل الحياة .

فلا يعود المرء يرغب في الحياة ، ولا يعود يرغب في الموت ؛ بل يدع الامور تأخذ مجراها الطبيعي . ويصل الى بوذية الزين ، او « اللامبالاة الميتافيزيقية » ؛ وهكذا نرى انه لا يوجد فارق بين مضامين علم التحليل النفساني الاخيرة وبين بوذية الزين .

قبل ان اتعلم كيف استطيع الا اعيش والا اموت ، المشكلة بالنسبة اليّ ان اتعلم اولا كيف اموت . وهذا ما استهدف فعله . هذا هو الوقت المناسب ، وان لم افعله الآن فاني لن افعله ابدا . وهو امر ليس بالبسيط ! ينتصب امامي حائط هائل، صخرة تسلقها رابع المستحيلات . ان ذلك يفوق قواي بما لا يقاس، في الوقت الحاضر على الاقل . ولكن من واجبي ان اجتازها او ان امر من خلالها. هذا ما يقوله لي شعوري الاكثر عمقا ، اذا كان لي ان اصدق رؤاي . وماذا يصدق المرء ان هو لم يصدق ما تقوله الرؤى ، وهي لغة التعبير عن اعمق افكارنا وادقها ؟ واذا قيل بان المرء لا يكون متمتعا بوعيه عندما يحلم ، فان ذلك يجب الا يؤخذ بحذافيره : اذ ان المرء لا يكون واعيا صافي الذهن الا في الحلم. مثال ذلك : حلمت بأني في وسط ساحة محاطة ببيوت مهدمة بلون رمادي قذر . كانت هذه الساحة عبارة عن ارض خراب مليئة بالاعشاب الجافة الخالية من الزهور والاشواك القديمة التي تكاد تفرقع من الجفاف . وكانت زوجتي عن يميني ، وامامي كنيسة هائلة ، او بالاحرى حائط عالٍ جدا لاحدى الكنائس ، حائط يكاد يساوي عرضه علوه؛ فكأنه حائط سجن كبير . وفي الاسفل الى اليمين باب مقفل متناهٍ في الصغر . لون حائط الكنيسة رمادي مائل الى السواد ويبدو وكأنه مثقوب بخلايا صغيرة بلون رمادي فاتح . وبدا الحائط الآن اشبه بمقبرة كبيرة عمودية الشكل مرئية من بعيد ، كما تُرى من الجو ، لو لم يكن قائما على حافته .

والى اليسار من هذا الحائط ، الى اليسار عندما انظر اليه امامي ، كان برج مرتفع جدا تشاهد في اعلاه قبة غريبة الشكل تستند الى اعمدة ارى بينها ، من الجهات الاربع ، السماء – او بالاحرى فضاء فارغا مشجبها حزينا . قالت زوجتي : « زعمت ان الكنيسة جميلة . انت ترى جيدا بان ذلك ليس صحيحا . انها ، على العكس ، شديدة البشاعة » . ثم اضافت : « لقد لحظت ذلك قبل ان تلحظه انت . وهذا ايضا رأي موريس دي ج . ، الذي هو خبير بهذه الامور » .

ثم اتجهنا نحو اليسار لندور حول هذا المبنى . كان تحت البرج ممر يقود نحو مطبخ لسودّ من القذارة ، في جدران مثقوبة يمر من خلالها هذا النور المتجهم الذي شاهدته في اعلى البرج .

كانت امام الحائط الى اليسار امرأة عجوز متشحة بالسواد من رأسها الى اخمص قدميها : انها الطاهية ، التي وقفت بمئزرها الاسود امام الحائط المسودّ المعلقة عليه اوعية سوداء . وما ان اجتزنا المطبخ حتى وجدنا انفسنا في حقل منحدر تكسوه الاعشاب البرية الجافة اياها تحت سماء متجهمة .

« ان التصوير على الاشعة يكشف بانك مصاب بسرطان في القلب . لقد كنت مخطئا حينما قلت لك بان آلام الظهر التي تشكو منها متأتية من التهاب المفاصل . في الواقع كان ذلك بسبب السرطان . ولكنه الآن اختفى والتأم . وترك ندبة » .

« قل لي الحقيقة ايها الطبيب . انك صديقي وعليك الا تكذب عليّ . انني قوي ومستعد لان اتحمل الحقيقة » .

« اذاً ساقول لك كل شيء ، لكن انتبه ، فاني سادوس على رجليك » (عبارة غريبة ، ولكن اوردها حرفيا كما قالها) . « هذا السرطان – طالما انت تصر على المعرفة – لم يكن فيك في الماضي ، بل هو موجود حاليا » . واحاول ان اسيطر على ذعري ، ويضيف الطبيب : « انظر الى صور الاشعة هذه . انظر الى النتوء الحادث في اسفل القلب حيث يتجوف : هنا مقر السرطان . انظر بنفسك » .

وانظر الى القلب ، الذي كان اسود ، بشكل الاجاصة التي يتمدد اسفلها الى جانب . حول القلب فراغ قاتم اللون ترى فيه ندوبا او علامات باهتة صغيرة تشبه تلك النصلات الصغيرة البيضاء التي نضعها في قبات القمصان لكي تبقى مستقيمة . واجد صعوبة في اخفاء قلقي ، اذ ان عددا كبيرا من الناس يجلسون من حولي ، فاشعر بالخجل . وبين هؤلاء الناس اراها هي الاخرى . ان تقاطيع جسمها تبدو اكثر وضوحا من الآخرين . تجلس على مقعد ، واضعة رجلا على رجل ، وتدخن سيجارة وتبدو عديمة الاكتراث بفزعي . واسأل الطبيب : « كم من الوقت يستطيع المرء المصاب بالسرطان في القلب ان يعيش ؟ »

« شهرين او ثلاثة ، سنتين او ثلاثا ؛ هذا يتوقف على حيوية المصاب » .

فقلت في نفسي : « احتمال شهرين اكبر من احتمال سنتين . فالانسان لا يستطيع ان يعيش بسرطان في هذا الموضع الحساس من جسمه ، اكثر من هذه المدة . لقد اخذت على نفسي ان اتعلم الموت ؛ ولكن مع الاسف بدأت متأخرا ، اذ انني ما زلت في البداية ولن يكون لديّ الوقت الكافي لذلك . ان الانسان يحتاج الى سنتين او ثلاث على الاقل لكي يتعلم الموت ويتحلل من قيود هذه الحياة » .

قال لي ز . ، الذي رويت له هذا الحلم ، بان هلعي من الموت يخفي شيئا آخر . ولفت انتباهي الى ان هذا القلب ، الذي جعلني ارسمه ، يبدو مشوها كما لو ان يدا تعتصره وتحتبسه . ان هلعي من الموت يتأتى من انني لا استطيع ان اتخلص من هذه اليد التي تمسك بقلبي بحزم وتشله وتمنع العدائية ، اي الحياة ، من التوثب والتحرر والتفتح .

وارى نفسي في حقيبة شفافة نوعا ما ، قد تكون من البلاستيك ، في قلب الفضاء الذي يفصل بين الكواكب . انا جالس وممدد رجليّ ، وعارٍ من الثياب وصغير كما لو اني ولد في الخامسة او السادسة من

عمري ؛ وامـــامي ولد آخر في الوضعية نفسها وهو يلوح وكأنه شبيهي تماما . وحول هذه الحقيبة المقفلة الفضاء اللامحدود القاتم اللون الهلامي . في الوانه القاتمة تنوع لا يحصى .

ونصل الى هدف سفرتنا . اعتقد اني لم اكن واعيا بان لها هدفا عندما كنت في الحقيبة . امـــا الآن فالهدف واضح : اننا على كوكب آخر . انا شاب بالغ لكنني ما زلت صغيرا جدا . ارى دائما نفسي فتيا في احلامي ، عمري يتراوح بين السادسة عشرة والثانية او الثالثة والعشرين .

(لماذا ؟ في ظني هذا عائد لسببين : الاول ، لانني ارفض ان اشيخ وان اموت، ولاني حتى الآن اجد حرجا في رفع الكلفة مع رجل في الاربعين من عمره لانه يخيل اليّ بانه يكبرني ، ومن هنا الشعور بانعدام الصلة مع الذين يصغرونني بقليل او مع من هم في سني ، والذين اعتبرهم ينتمون الى جيل اكبر من جيلي . وهذا لا يمنع شعوري باني لست على وفاق مع الشباب الذين ينتمون ايضا الى جيل آخر . ولكن منذ ان بدأت اعي لا اتذكر باني عقدت صلات مع شباب ، وعلى الاخص عندما كنت فتيا . وثانيا ، اشعر باني في السابعة عشرة من عمري في احلامي لان كل مشاكل الوجود والمعرفة الخاصة بي قد تحددت بوضوح وجابهتني عندما كنت في تلك السن ، ولانها ما زالت تجابهني وبدون حل . ولكن هل نستطيـع ان نجد حلولا للمشكلات الاساسية ؟ اقصد : هل نستطيـع ان نعرف قط لماذا نولد ونشيخ ثم نموت ولماذا نحن هنا ولماذا نحاط بكل هذه الاشياء التي لا ازال انظر اليها بدهشة ما فتئت جديدة الآن كما كانت عند فجر الوعي؟ وانا لا انفك اتساءل : لماذا ...؟ اننا لا نحل سوى المشاكل العملية – واكثر الناس يكتفون بذلك ولا يهتمون بالتساؤل عن الاسباب الاولية ، اذ انهم لا يبحثون عن الاصول ولا الاهداف الاخيرة . ان العلوم والتقنية والنشاطات المختلفة لا تعطي اكثر من حلول سطحية من المرتبة الثانية ؛ ولو لم يكن الامر كذلك لخفضت هذه الحلول من وطـــأة قلقنا بدل ان تزيدهـــا وخففت من حدة غضبنا وعدائيتنا وهذا السخط اللامعقول المتأصل فينا الذي يستبد بنا تحت ستار عقائديات تخفي المشكلة الاساسية وتخفينا عن انفسنا ولا تحل شيئا بل بالعكس تهدد بتفجير الكون) .

ها أنذا على كوكب آخر . وقد وصلنا الى محطة صغيرة مليئة بالناس، تعج بهم. وارى ايضا سيارة كبيرة يوجد فيها رفاق سفر كثيرون، بينهم رجل اعور يضع رباطا اسود يغطي عينه اليسرى، ورجل ذو لحية سوداء. واغادر المحطة مع رفيق لي ، وهو رفيق الاحلام الدائم المجهول الذي قد يكون شخصنا الآخر ، شخصا شديد المراس كثير الانتقاد. واشرع بالتنزه مع هذا الرفيق في شوارع الكوكب الآخر ،وهي عبارة عن جادة عريضة تشبه بوليفار ليففر في باريس . انني شديد القلق ، واتحدث مع رفيقي عن الوضع الذي نحن فيه . واذ انه من المحتمل اننا لن نستطيـع العودة الى الارض ، فماذا سيحل بنا ؟ زعموا لنا بان السفن الفضائية تستطيـع ان تردنا الى الارض ، لكني لا اصدق هذا الاحتمال ابدا : فانهم لم يجدوا بعد وسيلة لذلـــك . سنموت هنا . وفكرت بأسف وحنان في مقابر الارض . لقد قضي علينا . يعنفني رفيقي على قـــلة شجاعتي ، ويردني الى المحطة من اجل قطع تذاكر للاياب الى الارض او للقيام برحلات على الكوكب مع ركاب السيارة ، الذين يلوح عليه انه دليلهم. وفي شباك تذاكر المحطة ارى امرأة صغيرة سمراء تشبه امي وتحادثني بالايطالية. انا لا اعرف الايطالية . انها لغة سكان هذا الكوكب . واغادر المحطة لاطلب من احد رفاق السفر الذي يحسن الايطاليـة ان يساعدني . فلا اجد احدا . كما ان جماهير غفيرة تفصلهم عني . وارى نفسي وحيدا بين جماهير غفيرة ، مستعجلة ، لا مبالية ، جماهير كوكب آخر . انني قلق جدا ؛ كل شيء اسود وحزين ؛ انني اشـــعر بقلق لا يحدد .

قال لي ز . ان احلامي احلام نموذجية . فالحائط هو نموذجي، والحقيبة المسافرة في الفضاء والتي وجدت نفسي فيها في وضعية كوضعية الجنين هي نموذجية ايضا .

قال : « ان القلق في منامك يتأتى من انك غادرت الارض . انت تعرف ما ترمز اليه الارض – ترمز الى الام » .

« بما ان الاحلام هي صحيحة، فقد تعلمنا منها شيئا يجدر بنا ان لا ننساه: وهو ان سكان المريخ يتكلمون الايطالية . وهذا امر تحسن معرفته » .

ما ان يخيم الليل حتى يملأني هذا الخوف البالغ ، هذا الرعب . اتوق الى الوحدة ، ومع هذا لا استطيع ان اتحملها . قد يكون ذلك عادة . افكر بالاثنتين معا ، واخاف عليهما . يخيم الليل – يخيم على ظهري ، او بالاحرى يبتلعني واتغلغل فيه . يحيط بي ، وينفذ اليّ بلا حد ولا سد . انه محيط اسود اغرق فيه . اخاف من ان لا اراهما فيما بعد ، اخاف من ان اموت دون ان اراهما قط من جديد . افتقد الحرة . كأس واحدة تكفي لان يختفي الخوف. الاستقرار يولد التحدي والعدائية ويجعلهما يزدهران . اما في الوقت الحاضر فاني اشعر بالخوف . انهما بعيدتان جدا ووحيدتان . اخاف عليهما كثيرا واود لو احميهما .

انني بالطبع كثيرا ما اضجر وانا في المنزل ، ولكن اشعر بالاستقرار عندما اكون قريبا من امرأتي . حينما لا اعود اشعر بالخوف ، اضجر . وعندما اضجر ، تتحسن احوالي . الضجر ايضا يزدهر في الاستقرار، بل انه دليل على الاستقرار . وتزيد احوالي في التحسن عندما اغضب . فالغضب شجاعة ، بل انه قد يكون بطولة. عندما يقولون ان الغضب اعمى فانهم يقولون الحق . البطولة لا واعية . كان كليانصو فيما اعتقد هو الذي قال : « الشخصيات القوية شخصيات صعبة » . الضمير هو شيء ضار .

ساتصل تلفونيا بباريس.

بما ان الرغبة في الموت موجودة في قلب كل كائن حي ، وبما اننا نتألم حينما نحاول كبحها ومقاومتها ، وبما ان كل كائن حي يتوق الى الراحة والطمأنينة، فلنقطع اذاً كل صلاتنا الحيوية ولنهتم بتنمية التوق الى الموت. فلنعمل على سقايتها كأنها نباتـــة، ولندعها تكبر بدون عائق . ان كبح الرغبة في الموت يؤدي الى الالم ويولد الخوف .

في غرفة الطعام ، وعلى الطاولة المجاورة لطاولتي ، يجلس عجوز مريض ذو عكازتين ، ضخم الجثة احمر الخدين ، يقوم بتمرين اعضائه المشلولة . وجوده محمول . بازائي يجلس عجوز اصلع ذو لحية بيضاء ، عجوز صحيح الجسم ، او، كما يقولون ، احتفظ بصحته رغم الكبر؛ هو ينضح بالشباب ، مورد الخدين، يأكل عن اقتناع فيمضغ طعامه بتؤدة ويتناول اللوز والجوز بطريقة صحيحة كما تعلم ان يفعل . ومع ذلك فهو يثير الفرف والاشمئزاز. اذ انه يعرف، او بالاحرى يعتقد ، بأن ما يأكله يؤمن له الحياة . كل لقمة تضمن له ساعتين من الحياة ؛ حتى انه ما ان ينتهي من اكله حتى يتأكد بانه كسب اسبوعا من العيش . والواقع ان النظرة التي في عينيه هي الاكثر اثارة وازعاجاً – فهي نظرة العجوز الذي يتمتع بصحة جيدة ، نظرة مليئة بالحيوية والحيلة والقسوة . طلبت تغيير مكاني . هذا التكالب على الحياة وعلى التعلق بالحياة ، الذي لن يفارقه قبل مدة طويلة ، بدا لي مأساويا ورهيبا ومخيفا وغير اخلاقي في الوقت نفسه . ادرك جيدا باني في الحقيقة من خلاله اكره نفسي ، لانني متكالب مثله على الحياة ؛ ساصبح مثله بعد سنوات معدودة ؛ لا استطيع ان اغفر له ذلك كما اني لا استطيع ان اغفر لنفسي . والواقع ماذا جئت افعل هنا ، اليس لاتناول الصحن واتلقى حب الحياة ؟

انني متأكد من ان الاطباء والممرضات الذين يعالجون هؤلاء الاشخاص الاغنياء في اكثرهم ، يشمئزون بعض الشيء من هذا التكالب على الحياة . لا ادري لماذا يبدو لي بان طريقة تناول الطعام بشكل صحي مؤدب هي طريقة لا اخلاقية . اني افضل عليها الافراط في الاكل والشرب، والالتهام والتخمة . لان في هـــذا الافراط نوعا من التحرر ، اذ انت لا تأكل لتعيش بل تأكل لتتخم ولتنفجر . ان في ذلك طريقـــة لقتل النفس .

قال لي ز . : « انت الذي تريد ان تتعلم الموت لا يبدو عليك انك تريد ذلك حقـــا . فانت لا تنفك متقلص الوجه بسيماء شخص لا يستسلم ولا يدع نفسه للاقدار . لو كنت تريد الموت حقـــا لكنت ظهرت مسترخيا هادئا » .

فاجبت : « اعرف ذلك جيدا . علمني كيف افك هذه العقد. اعرف بانه ينبغي عليّ ان افكها بنفسي، كما اعلم بان هذا عمل يتحتم على كل فرد ان يقوم به بنفسه ، ولكن بالله عليك امنّ لي شيئا من النور حتى ارى كيف عقدت هذه العقد التي لا استطيع ان افكها » .

« انت بمعنى من المعاني ميت . طالما ان في نفسك نزعات متناقضة تمنع عليك الحركة وتجعلك مقيـــد اليدين والرجلين مشلولا ، فانت ميت » .

« انني ميت بطريقة مغايرة، اذ ان في الموت استسلاما ، وانا لا استسلم . او لعل هـــذه النزعات التي تذكرها تقتلني بطريقة اخرى ، فاني اعيش كأنني ميت » . وانفجرت ضاحكا لهذه العبارة المتناقضة التي تفوهت بها بعفوية تامة .

قال الرجل : « كنت مخبـّأ . وهذا اول الطريق » . يذكر مارتن بوبر في مقدمة كتابه عن « حكايات الهسيدية » انه حسب هذه البدعة فان «سبر غور القلبهو بدايةالطريق فيحياة الانسان، ولكن هذا السبر لا يكون مثمرا الا اذا قاد حقا الى الطريق، لانه ثمة تنقيبفيالقلب عقيم، ولا يقود الا الىتعذيب النفسوالياس والمزيد من الضلال » . أليس هـذا تنبؤا بعلم التحليـل النفساني الذي يطهر ويصفي ويطرد الشياطين، في حين ان تحليل النفس الذي يمارسه الادباء وكتـّاب اليوميات هو بلا جدوى ومفضٍ الى اليأس ؟

ومن وصايا الهسيدية: « يجب على كل انسان ان يجد طريقه بنفسه » . وليس ذلك بغريب عن علم التحليل النفساني ، الذي يهتم بالقاء ضوء في لحظة معينة على ما يعتلج في القلب. وتتفق اقدم اشكال الحكمة علىوجوب ملاحظة امور ثلاثة: « اعرفمن اين اتيت، والى اين تذهب ، ولمن عليـــك ان تؤدي حسابا » . انا ، واحسرتا ، اركض وراء نفسي ، لكنها تعدو بسرعةزائدة فلااستطيع اللحاق بها . (الفكرة بانني قد مت تستهويني وتطمئنني . ولكن بشكل سطحي فقط ؛ فلو اني مت حقيقة ... لكنت عرفت ذلك) .

هناك عدة اصناف من الناس. فثمة الذين يلقون الاسئلة على انفسهم ولا يجدون لها اجوبة والذين يقتنعون بعدم معرفة من اين اتوا ولا الى اين يذهبون ؛ وثمة الذين لا يطرحون على انفسهم اي سؤال ، ويعيشون باكتفاء ، وقد يكون ذلك لانهم عثروا على الجواب في لا وعيهم ؛ وثمةالذين يلقون السؤال على انفسهمويجدون جوابه ؛ وثمة اخيرا الذين يطرحون السؤال ولا يستطيعون الجواب عليه . انا انتمي الى هذه الفئةالاخيرة ، وفي سني ليس من امل في استطاعة العثور على جواب . ماذا جئت افعل هنا ؟ مشكلة تتركني محيرا .

اعلم، اعلم ان البعض سيقولون لي بان ضيقي وانزعاجي متأتيان من انفصالي عن نفسي . ان التفسير النظري للقضية يعرفه كل من قرأ ولو قليلا من كتب علم التحليل النفسي، وبشكلخاص كتب مدرسة يونغ. انفصال لا عزاء له عن الامّ ، انفصال لا عزاء له عن النفس ، عن الارض ، عن الموت . وهكذا اطرح الذات ، ذاتي ، على اللاذات ، التي ابتدع منها ذاتا ، ذاتا جشعة صغيرة تتقلص من اللا ذات التي هيالذات العميقة التي ارفض ان اعتبرها ذاتا عميقة . يجب ان اتوصل الى الاحساس (لا الى مجرد الفهم الذهني) بان الموت هو ذاتي ، وان اللاذاتهي ذاتي الحقيقية الاصيلة. وهذا ايضا يلوح لي بانه يتفق والفكرةالشرقية؛ فهذه اللا ذات التي هي ذاتي اليست هي « الاتمان » اياها (الذات الحيوية العليا) ؟

كيف استطيـع ان احتال على هذه المشكلة ، كيف استطيـع تسلق هذا الحائط الهائل الذي يلوح لي في منامي ، او اعمل على هدمه ؟ كيف استطيـع ازالة الحاجز الذي وضعني ووضعنا جميعا في هذه الحـــالة الصعبة ؟ انظر الى الناس جميعا : تارة يريدون العيش ، وتارة يدون الموت ؛ تارة يعتني احدهم بالآخر ، وتارة يفتك احدهم بالآخر . ان الناس لا يعرفون ماذا يريدون .

ادور في قفصي وادور ، خلف القضبان ، كأنني حيوان مفترس .

احلم بانني اتنزه في ميدان كبير . حول الميدان تقوم بيوت بيضاء ينظر اليّ من نوافذها اناس كأنهم يستغيثون الحاق الضرر بي . وفي طرف الميدان يوجد نزل صغير ، فيه خادم سألته ان يقدم لي شيئا احتسيه . فاجابني الخادم: « لا استطيع ان اقدم اليك شيئا تشربه ما لم تطلعني على شهادة تثبت صحة قواك العقلية». فسألته : « لماذا ؟ اذا كان جميع الناس مجبرين على تقديم شهادة كهذه فانك لن تقدم مشروبا لاحد ». فاضاف الخادم : «المسألة تختلف في حالك انت. يقولون انك مجنون. وقد غرزوا في جسمك الابر التي تحوي مختلف العقاقير» . فشرحت له بان الذي غرز في جسمي هذه الابر هو طبيب وقد فعل ذلك ليقضي على شعوري بالقلق والغم ، ولكن لم استطع اقناعه فانصرفت عنه آخر الامر . وحاولت التدخين ، ولكن لفائفي اخذت تنطفىء الواحدة بعد الاخرى ، اذ كانت فيها ثقوب ينفذ منها الهواء . فاخذت ارميها الواحدة تلو الاخرى . وعدت ادراجي ، وقد يكون ذلك لشراء لفائف اخرى . فلم اجد ثمة لا الخادم ولا دكانه . فالفيت مكانها حفرة صغيرة . فاخذت ارفس برجلي المكان الذي كان فيه المستخدم رفسا شديدا، كأنني اريد قتله او طرده رمزيا او الثأر منه . ثم عثرت في طرف آخر من البستان بين الاشجار على نزل بالغ الصغر . هل سيقدمون لي في هذا النزل ما اشربه ؟ كان فيه ثلاثة اشخاص او اربعة جالسين . كما كان فيه الشاب اسمر راح ينظر اليّ بشيء من العطف . وقد دخلت الى هنا ايضا لاتخلص من نظرات الغدر التي كان يرمقني بها الاشخاص الواقفون خلف ستائر نوافذ البيوت البيضاء . فابتسمت للشاب ، ثم خنقت ابتسامتي. فقد اكون خدعت ، وقد يكون خيل اليّ بان هذا الشاب ينظر اليّ بعطف ؛ ربما كان ذلك وهما . ان الصيدلية النزل تبدو امرأة طيبة ، فهي ترد عليّ بتهذيب ، وتعتزم تقديم الشراب اليّ ، وقد فتحت بابا صغيرا وقود حتما الى الدكان الخلفي حيث توجد المشروبات. لقد قبلت بان تقدم لي ما اريده . فجلست الى طاولة، وانتظرت قدومها بالشراب والطعام . ولكن اي نوع الشراب واي لوع من الطعام ستقدم لي ؟ احاول معرفة ذلك ، ولكن بدون جدوى . واخذت انتظر ؛ ساعلم سريعا ما سوف تقدمه لي، لكني ظللت اتساءل: ما الذي ستقدمه ؟ انتظرت وانتظرت ، على غير طائل ؛ وانتهى الحلم وانا لا ازال انتظر .

وقد شرح لي ز . (وكنت اعلم ذلك من قبل ان يشرحه لي) بان في هذا الحلم عناصر هاجس شفوي . فعندما يشعر الطفل بضيق ، يقدم له الثدي ، فيزول ضيقه. الشراب والطعام هما هاجسان شفويان . ومن المعلوم ان الاكلة الكبار والمدمنين على الخمرة هم في اغلب الاحيان مصابون بامراض عصبية مختلفة . فان يبتغي المرء الشرب والاكل وان لا يستطيع التوصل اليهما ، شكل آخر من اشكال الانفصال عن الام . ولكن من المؤكد ان معرفتي لذلك لا تساعدني البتة . وعلى اي حال ، فان هذا الطعام الذي اجوع اليه وهذا الشراب الذي اتعطش له ليس طعام الطفولة ولا شرابها . ان جوعي وعطشي هما للمعرفة . لو انني كنت اعلم حقا ما الذي اجوع واتعطش اليه ، لكان كل شيء قد تدبر . انني انتظر ابدا بدون جدوى ، وكما في الحلم . المزعج في هذه الاحلام انها لا ترميني الا في ما اعرفه من قبل . فليس بي حاجة لان احلم كيما اقف على اسباب قلقي وغمي ؛ ان ذلك لشديد الوضوح . انني لا اكتسب شيئا جديدا ، ولا اعرف اكثر مما كنت اعرفه قبلا . ان احلامي هي واضحة اكثر من اللازم . ومع ذلك فثمة شيئان، شيئان صغيران ، ينبغي ان اتوقف عندهما : يجب ان اتيقن تيقنا مطلقا من ان اللا ذات هي ذاتي ؛ ويجب ان اقول في نفسي بانني قد مت وان ذلك ليس سيئا الى الحد الذي نتصور .

أصحيح حقا ان التحليل النفسي الفرويدي لا يصدر احكاما ، احكاما اخلاقية ؟ ولكننا نعلم ان هذا التحليل يرمي الى تحرير الانسان . وهو لذلك لا بد ان يصدر احكاما ، اذ مم يحاول الانسان ان يحرر

نفسه – ان لم يكن من الشر الذي هو كل ما يقيده ؟ ان اتباع بوذية الزين ينفجرون ضاحكين لدى رؤية جثمان ما ، وهذا يعني انهم يصدرون حكما سلبيا على الحياة والموت ، على الله . اصدار الحكم هو وضع امر ما على سلم القيم . وهذا يعني اتباع مقياس من المقاييس . ان بوذية الزين ترفض الله كما يتجلى في ظواهر الطبيعة ؛ او انها بالاحرى تجرد ذاتها عن تجلياته كما تجد الله في الما بعد، اي في لا تجليه . فهي لذلك تصدر حكما على التجلي ، وتفضل عليه اللا تجلي . وعلى اي حال ، فعندما يضحك الانسان فذلك يعني انه يقاوم الدموع ويجاهد النحيب ، او بالاحرى انه ما زال ذا علاقة بالنحيب ؛ وحتى ولو كان الانسان اقوى من النحيب فعندما يضحك فانه يصدر حكما ويحس بالهوى . و فرويد ، من جهة مماثلة ، عندما قال بان قيودا تكبلنا ، وبوجود الشر والقلق والنرطقة ، فانه اصدر احكاما . الانسان الحر هو الذي لا يدري حتى بانه حر ، الذي لا يعي بان ثمة حرية وقيودا. الحر ليس الذي اجتاز حدود الخير والشر، بل هو الذي لا تشغل فكره الحرية والقيود . اذا رغب الانسان في الا تكون له رغبات ، فتلك ايضا رغبة – الرغبة في الا تكون له رغبات . الحر ، بل انه ليس حرا ، بل انه ليس غير حر ، هو الانسان الذي يعيش كيفما تأتي الحال ، الذي لا يرضى بالموت ولا يرفض الموت ، الذي يكون الموت والحياة عنده سيان .

انقطعْ عن التفكير ، فرّغ العقل من الفكر : الحيوانات ايضا تفكر ، للاسف ، وهي ايضا تخاف وتهاب الموت. ليس بامكاننا الا نجوع والا نعطش . لماذا وجدت الخليقة ؟

ان هذا التهالك على معرفة نفسي وعلى المعرفة بصورة عامة كان يجب ان ابدأ به قبل ذلك ، وانا اصغر سنا . فلو اني اهتممت بذلك في الوقت المناسب فمن المحتمل اني كنت توصلت الى شيء ما . بدل ان انصرف الى الادب واضيع وقتي وجهدي وابددهما . كنت اعتقد ان لي من الوقت ما يكفيني ويزيد ، ولكني اشعر الآن بانه ينبغي عليّ ان اعجل وان هذه فرصتي الاخيرة ، وواضح ان العجلة ليست بصالح البحث عن الحقيقة . والواقع انه بسبب الادب وارتباطي به لم اعد افهم شيئا مطلقا. فكأني استنفدت في الادب جميع الرموز دون ان اتعمق فيها واصل الى مغزاها ، فلم تعد هذه الرموز تخاطبني بطريقة حية . لقد قتلت الكلمات الصور او حجبتها . ان حضارة قائمة على الكلمات هي حضارة تائهة ذاهلة . الكلمات تخلق الابهام والفوضى . الكلمات ليست الكلام .

لكن هذه الكلمات هي كأقنعة ، او كأنها اوراق ميتة سقطت على الارض . ان شجرة الحياة والموت تنتصب هناك ، عارية وسوداء . لم يعد ثمة شيء يخفي الكرب الاعمق العضال .

اعود الى صورة حائط الكنيسة الرمادي القاتم الذي لا يمكن تسلقه . ما اوجز الصورة واعمقها وما اشد تعقيدها، وكم يصعب على الكلمات ان تعبر عن افكارها الحية ! في هذه الحال ، كنت اشعر بالحاجة المتقدة الملحة لتسلق الحائط ، وكنت احس في الوقت ذاته باستحالة تسلقه . هل كان في الاسفل الى اليمين باب صغير ؟ يلوح لي ان اجل ، ولكن من المؤكد انه كان مقفلا . الحائط هو اذاً حائط سجن ، سجني انا انه الموت ، طالما انه يبدو كمقبرة اذا نظرنا اليه من بعيد ؛ انه حائط كنيسة ، يفصلني عن جماعة من الناس فهو اذاً تعبير عن وحدتي وانقطاعي عن الناس ؛ فانا لا استطيع ان اصل الى الآخرين ، والآخرون لا يستطيعون ان يصلوا اليّ . وهو في الوقت ذاته العقبة في سبيل المعرفة ؛ هو ما يخفي الحياة والحقيقة . وباختصار ، ان ما اريد النفاذ اليه هو سر الحياة والموت – لا اكثر ولا اقل . ومن الطبيعي جدا ان يلوح لي مشروع كهذا مستحيلا . ولكن ينبغي عليّ ان اقول مرة اخرى باني لا احلم الا بما افكر فيه في حالة اليقظة ، وبان الصورة ليست الا خلاصة هذه الاستحالة ، خلاصة صورية .

يبدو لي انه عندما افكر في هذه الصورة فانني اكتشف شيئا ليس اكثر ابتكارا وجدة مما افكر في العادة ولكنه اكثر دقة : لماذا الارض حالكة ومغطاة بالاشواك الجافة ؟ لانها ارض ميتة. لماذا السماء حالكة

هذا الحد ؟ لماذا السماء التي نراها من خلال اعمدة القبة التي تعلو الكنيسة الى اليمين ليست زرقـــاء ؟ لماذا ونحن ما درنا حول الكنيسة واجتزنا المطبخ الوسخ وجدنا انفسنا في حقل منحدر حالك السواد وقاحل ؟ لانه عالم منقرض تنقصه النار الارضية والحصب وينقصه في الوقت ذاتـــه النور السماوي . انها صورة عالم ، طلي ، الذي تنفصل فيه الارض عن السماء ؛ وصورة نفس ، نفسي، التي انفصلت فيها الارض عن السماء مع كل ما يعني ذلك : اي ان قسما من ذاتي هو مفصول عن القسم الآخر ، اذ ان اعماقي لم تعد تغذي عقلي . وماذا ينفعني ان اعرف كل ذلك ما دام هذا الحائط الفاصل الذي لا يمكن خرقه قائما ، وما دمت لا اعرف انه هو مصنوع هذا الحائط ؟ انني احور وادور ، وتطرح مشاكلي بذات الحدة وتبقى حلولها خافية .

ويعبر الحائط ايضا عن قصوري ككائن بشري قصورا لا يمكن تجاوزه . انني لست انتمي الى هـــذا المكان ولكن الى مكان آخر : والمشكلة هي كيف اجد هذا المكان الآخر خلف الحيطان : وهذا ايضا يعود الى تأملات مبتذلة . فمن الواضح ان كل انسان منا هو محدود في شخصيته : اننا جميعا نعرف ذلك . ومحدودية الانسان تبعث فينا القرف ؛ والا فاننا نعترف بها ونقبل بها . انما ما قد يكون اقل ابتذالا هو الالم الشديد البالغ الذي يسببه لي قصوري : انني لست خالدا ، ولا استطيع ان الم بكل شيء او ان اعرف كل شيء ، كما لا استطيع ان اكون في كل مكان ، وعلى نطاق لا نهاية له . وانانا لم ارضَ بمحدوديتي هذه،وان كانت هذه المحدودية تلوح لي وكأنها حائط في احلامي حتى انها سببت لي مرضا عصبيا لا يطاق، فكل ذلك ليس مبتذلا . وقد يكون هنا مكمن الشر. فلما كان من المستحيل تسلق الحائط، كان عليّ ان اقبل بذلك. وعدم قبولي به هو من عمل الشيطان . وفي هذه الحالة على الحائط ان يصمد ، وليس عليه ان ينهار الا اذا شطرني شطرين . الجنة هي التماسك الكامل . اذاً ليس هناك من جنة . ماذا نفعل اذاً ؟ يجب ان تكون لدينا الثقة . كل رجال الدين وكل الحكماء يقولون ذلك . يجب ان تكون لدينا الثقة . اقول ذلك لنفسي ، ولكن عبثا .

تلوح لي ر. في اكثر احلامي ، اما في شكلها الخاص او في شكل آخر ، متخفية كما لو انها لا تريد ان تظهر ذاتها . ولكني اكتشفها واعرفها . ها هي ذي ، تلك المحاورة من الدرجة الاولى ، فهي في الوقت ذاته نفسي ومظهر آخر لنفسي ، وكأنها حينا شخص خيالي وهمي ، وكأنها حينا آخر رقيب مؤنب ونقادة ؛ تبدو حينا وكأنها صوت ضميري ، وحينا وكأنها عدوي اللدود . ولكنها هنا على كل حال. اراها في ذلـــك البستان المصاب بالجفاف ، وفي تلك الساحة ، واراها تؤنبني امام ذلك الحائط الذي يبدو لها بشعا ؛ وهي معي في تلك الحقول المنحدرة الجدباء الحالكة، وتحت هذه السماء المظلمة . من المؤكد انها تشاطرني قدري ، سواء اردت ذلك ام لم ارد . انها تقول ذلك منذ زمن طويل ، منذ زمن طويل فعلا . لا يمكن ان يكون الامر غير ذلك ، والا فكل شيء يتهدم. وهي لا تحاول ان تقودني، سواء كان ذلك نتيجة حب او امتلاك؛ ولكنها ترافقني ، مجتهدة فقط في منعي من ان اضل سبيلي ، او بالاحرى في منع ما تعتقده ضلالا . ان كلمة «استقلال» كلمة معرضة لاساءة الفهم ؛ بالنسبة لي ، ان لا تكون معي هو الضلال بعينه . وفي هذه الحالة تشعر هي نفسها انها مشرفة على الضياع وانها تائهة في عالم مختلط ، عالم فقد قواعده واسسه .

يلوح لي انه منذ اسابيع لم يعد العالم ، كما لو ان تبديلا ما دقيقا وخفيا قد طرأ عليه ، كما لو ان آلة معقدة حلت براغيها قليلا وبقيت تعمل كما كانت تعمل قبلا – ولكن ليس تماما اذا نظر فيها شخص دقيق الملاحظة . فنور السماء قد استحال الى لون آخر ، والاصوات والالحان قد تبدلت بعض الشيء . فكأن ما حدث هو شيء من التفكك ، وكأن نفس النتائج اصبحت تبطيء في الاستجابة الى نفس المسببات . او كأن ثمة شقوقا في جدران عمارة يستطيع اللامعقول والغريب ان يتسلل منها . فالسمة اختلفت، والمظاهر تبدلت،

والاجراءات تغيرت ، وفي كل مكان هذه الشقوق غير المرئية ، وهذه الآلات المحـــاولة التي تدع ما يدعى بالجنون يدخل ويتفشى كغاز سام اذا ما تراكم بكميات كبيرة داخـــل البناء العام سبب الانفجار في كل شيء .

وانه لمن الصعب تحديد هذا الشعور . فليس هو احساسا قويا باللا واقع، احساسا قصير الامد بازمةعنيفة تمر ؛ بل هو شعور متردد حذر ببداية لا واقع لا يلبث ان يطغي على المرء . ان الاشياء هي على ما كانتعليه، ولكن ليست كما كانت عليه تماما ، ومع ذلك فهي على ما هي عليه . ليس عاصفة من الجنون . بل نسيما .

بعض مقاطع من حلم : صديق لي يدعى ميشال قد مات . مات بهدوء وتجلد . واراه ممددا على الفراش . اما ما بقي لي من صور الحلم ، فمن الصعب عليّ التعبير عنه . الى جانبه تمدد ايضا خادمه ، الذي يشبهه الى حد بعيد — بل انه نسخة طبق الاصل عنه : وهذه النسخة تتحول الى صفحة دفتر مكتوبة . واعـــلم ايضا بان هذه النسخة او هذه الصفحة قد ماتت قبله باسبوع . ويقول لي ميشال بانه سيكتب لي فيما بعد ، وبانه سيرسل اليّ تحريرا يحمل الرقم ١٣٩ .

افكر من جديد في الحلم الذي لاح لي فيه الحائط الكبير . حائط العبرات ، حائط الفراق . واقول في نفسي فجأة انه ينبغي عليّ ان ازيل هذا الحائط اطلاقا . وانه اذا أريته في الحلم من جديد فهذا ما ساحاول ان افعله . باستطاعتي محاولة ذلك وانا ما ازال احلم ، عليّ ان اركز على هذه الصورة الذهنية وان ازيـــل الحائط في خيالي . وآمل انني اذا توصلت حقا الى ذلك فان حدثا جديدا سيحصل ، حدثا غير منتظر . فقد تتألق السماء ، وتزهر الاشواك الجافة ، وتكتسي الارض من جديد نباتا اخضر .

مهما عملت في هذا العالم ؛ سواء اقلبته ام حولته ، اعني تراءى لي اني حولته ، او على الاقـــل استفدت منه ، سواء اذهبت الى الكواكب الاخرى ام لم اذهب ، يبقى امر واحد ، وما هو هذا الامر ؟ ليس شيء اقوى من حسي بالدهشة على انه هكذا وعلى اني موجود هنا . بل اني لو توصلت الى فتح الابواب جميعها ، فسيبقى باب لا يمكن فتحه ، باب الدهشة.

ان هذه القضية التي اعرف بانه لا يمكن حلها ترهقني حتى الموت . انها ، هي ايضا ، الحائط . مـــاذا يعني ان اكون هنا ، وماذا يعني ان اكون ، وان يستمر الكائن ابدا وابدا ؟ لماذا الكينونة ؟ وفجأة يلوح لي بارق ضئيل من الامل اللامعقول : احد ما قد اغدق علينا هبة الحياة ، ولا يستطيع من وهبنا اياها ان يستردها منا . لا ادري تماما ماذا يعني ذلك . لا ادري ابدا ماذا يعني .

قبل سنين ، عندما كنت مراهقا ، وايضا بعد ذلك بقليل ، كانت الدهشـــة تولد الشعور بالاطمئنان والنشوة . فلأحاول مرة اخرى ان اصف هذه الحالة النفسية ، هذا الحدث . كنت في بلدة صغيرة من مدن الارياف ، وانا في الثامنة عشرة من عمري تقريبا . كان النهار مضيئا وكان الوقت قبل الظهر بقليل . نهار من نهارات حزيران (يونيو) ، اوائل حزيران . كنت اتنزه في البلدة الصغيرة امام بيوتها الوطيئةالبيضاء. ما جرى كان غير منتظر ابدا . تحول فجائي في البلدة . كل شيء اضحى في الوقت نفسه حقيقيا وغـــير حقيقي ، ولاح لي بان الحقيقة امتزجت بالخيال امتزاجا محكما لا انفصال فيه . اصبحت البيوت اكثر بياضا واشد نظافة . ثمة شيء غريب جدا في النور ، شيء عذري في النور ، عالم مجهول لاح لي باني اعرفه منـــذ الازل . عالم كان النور يذيبه ثم يرده لنا جديدا . فاثار ذلك فرحا دافقا من اعماقي ، فرحا حارا مضيئا هو الآخر ، احتل كياني احتلالا مطلقا . قلت في نفسي : ان هذه هي الحقيقة ، ولو اني لم اكن لاعرف كيف احدد هذه الحقيقة. لو انني حاولت تحديد هذه الحقيقة لكانت اندثرت من دون ريب. وقلت في نفسي

ايضا : بما ان هذا الحدث قد حصل ، وبما انني قد عشته، وبما انني اعلم كل شيء ، مع جهلي بما اعرف ، فلن اكون بعد تعيسا ابدا ، اذ انني قد اكتشفت الآن باننا لا نموت . ولم يكن عليّ الا ان اتذكر هذه الهنيهات وتكيما اتغلب على كل هم وغم في المستقبل . لقد تجلت لي الحقيقة الجوهرية ؛ كلما عدا ذلك هو قشور . ومن الحق ان اقول بان ذكرى هذا الحدث قد ادخلت الطمأنينة الى قلبي طوال عدة سنوات . ولكن اطمئناني اخذ يقل شيئا فشيئا بعد ذلك ، حتى انه لم يعد اليوم موجودا ابدا . وعندما احاول ان اتذكر الشعور بالسعادة ، لا ارى سوى صور مبهمة ، مسلوخة عن نفسي ، صور لا يمكن القول عنها انها غير مفهومة تماما ولكنها غير قابلة لان تعاش من جديد . انها لم تكن اكثر من صور على شاشة سينمائية .

يقول لي ز : ان هذه التجربة التي اصف هي ظاهرة نموذجية جدا . انها ما يسمونه بالاشراق . وهو يعجب من ان هذا الحدث قد فقد قوته وان ذكراه لم تعد تشد من ازري . وينصحني بان احاول التفكير فيه بشدة .

ان « الاشراق » هو الكلمة الصائبة لوصف هذا الحدث ؛ فهو شيء حصل فعلا في النور . ربما لم تكن التجربة تجربة كاملة ، ان شيئا ظل ينقصها . ظننت انني اختبرت الحقيقة الجوهرية ، غير ان جوهر الحقيقة الروحية كان مفقودا .

وعلى اي حال فان الشعور بالاطمئنان والنشوة (سواء احدث في الحلم ام في حال اليقظة) هو مرتبط بالالوان والنبات والنور المتألق – كصور النبات في الحلم او كنور الشمس الذي يتسلل من خلال اغصان الاشجار الخضراء .

ابداً اجدني اعود الى الادب . ويروق لي اني استطعت ان اصف هذه الصور وان احكيها عن طريق الالفاظ بطريقة تكاد تكون مقبولة . وافكر بان قصي لها ربما كان مكتوباجيدا . وقد تروق بعض القراء وبعض النقاد . اذ اقول ذلك ، اذ اقوله لنفسي ، اجدني واقعا من جديد في الادب. وكوني واعيا لذلك ليس من شأنه ان يرفع من معنوياتي . ان وعيي لكوني واعيا لطبيعة كتابتي الادبية يزيد الطين بلة في الواقع . ومع هذا ينبغي عليّ ان اقرر الاختيار : اما الغرور ، اي طريق الفشل ، واما الشيء الآخر . لا يقبض لكل شخص الحظ الحسن ان يتلقى ضربات قاضية ، ولا يتأتى لكل انسان الحظ الحسن بان ييأس يأسا تاما ، ييأس من الحياة : لذلك فاني انسى ، واتعزى، واهو ، وانبسط ؛ واكتب « يومياتي الحميمة » . ان بي حيوية هائلة ، لا شيء يستطيع ان يضعفها . الاحلام والكوابيس هي وحدها التي تستطيع ان تبقيك مستيقظا . ومع ذلك فيلوح لي ان بعض الصفحات الماضية لا تمت بصلة الى الكلمات والادب . هل هذا لان مدير الكوميدي فرانسيز اتصل بي قبل لحظة تلفونيا من باريس وقال لي بانه مهتم بآخر مسرحياتي ؟ لا يلزمني الا القليل حتى استعيد توازني في العالم الفاقد توازنه . سآكل تفاحة .

تزاوجوا تكاثروا ، تقول لنا الاديان. ولكنها في الوقت ذاته لا تنظر نظرة الاستحسان الى نشاطات الجسد ، وتضع لها قيودا وانظمة مشددة . حتى ان القديس بولس كان يقول بانه لا ينبغي على المرء ان يتزوج الا اذا كان من المتعذر عليه حقا ان يمتنع عن نشاط الجسد - ذلك لان الجنس خارج الزواج هو بالطبع محرم بتاتا . يجب ان نصلي لنحصل على خبزنا اليومي ، والنبيذ شيء مقدس – ولكن يجب الا نكثر من الشراب ويجب الا نكون نهمين . العالم هو تجلٍّ ، ومظهر رائع للالوهة ؛ على انه للحصول على الخلاص يجب ان ننصرف عن هذا العالم الحسي . كيف يمكن ان نوفق بين هذا التأكيد المستمر على الحياة وبين هذا التنكر المستمر لها ؟ أيكون ذلك تعبيرا عن الصراع الدائم بين غريزة الحياة وغريزة الموت ؟ من الصعب ان نجد التوازن بين هاتين الغريزتين . ويحاول علم الاخلاق ، الذي يحدد المحرمات والنواهي ، ان يجد هذا التوازن

بواسطة الارغام المنبثق من الخارج . هذا النظام الاخلاقي، هذه المحاولة لضبط وتنظيم الجنس واللذة والشهوة هي هامة لاننا نجدها في الوقت نفسه عند اليهود وعند النصارى وفي المجتمع البرجوازي وايضا، ولكن بصور اشد تصلبا، في المجتمع السوفييتي المعاصر . تتمرد الثورات على الاخلاقيات البرجوازية وتقول (ومعها حق فيما تقول) بانه لم يعد لها اي معنى ، اذ انها لم تعد تستند الى اي ايمان ميتافيزيقي ولا يعلم احد من اين اتت وما الهدف منها . غير انه ، بتناقض غريب ولاسباب مختلفة هي عبارة عن تهرب من الواقع ، نجد هذه الاخلاقيات تستعيد سطوتها من جديد، باسم الاشتراكية مثلا، ولكنها في الحق تحتفظ بطابعها البرجوازي اكثر فاكثر لانها تتخذ شكل ثورة على الانحلال البرجوازي الاخلاقي .

كلمة واحدة يمكنها ان تضعك على الطريق السوي ، وكلمة ثانية تثير فيك الاضطراب، وثالثة تبعث فيك الهلع . وبعد الرابعة تعم فيك الفوضى المطبقة . كانت « الكلمة » تعني الحركة والعمل ، واصبحت الآن تعني الشلل . ما هي الكلمة ؟ هي كل ما لا يجري اختباره بزخم متقد . عندما اسأل : هل تستحق الحياة ان نموت من اجلها ؟ فذلك نص لفظي ليس الا . ولكنه على الاقل نص هزلي . ليس هناك من لا يلاحظ كم يتكلم عن اللغة ، الشبابُ من طلاب السوربون والجامعات والكتّاب والصحفيين المعروفين ورجال الادب التقدميين والاغنياء . لقد اصبح الاعتناء بالكلام فكرة ثابتة يتكلفونها باستمرار . والواقع ان شدة اعتنائهم بالكلام دليل على انشغالهم انشغالا كبيرا بما ينقصهم . على ايام برج بابل ايضا كان الناس يتكلمون كثيرا على اللغة ، قدر ما يفعلون اليوم تقريبا . لقد اصبحت الكلمة ثرثرة ، وكل امرىء اصبح لديه ما يقوله .

لم تعد الكلمة تدل على شيء . اصبحت الكلمة تثرثر ، اضحت مجرد ادب او هروب . الكلمة تمنع الصمت الكلام . الكلمة تصرع. وبدل ان تكون حركة وفعلا اصبحت تعزيك بافضل طريق تستطيعها لعجزك عن الحركة والفعل . الكلمة تهري الفكرة وتفسدها . السكوت من ذهب . على السكوت ان يصون الكلمة ويحميها . اللغة، مع الاسف، مصابة بالتضخم والانفلاش – وهذا ايضا هو كلام. اي حضارة نعيش! يكفي ان تبتعد همومي حتى ابدأ بالكلام ، بدلا من ان احاول الاحاطة بالواقع ، بواقعي ، وبالواقع العام، لا تعود الكلمة اداة تنقيب وبحث . لا اعرف شيئا مطلقا ، ومع ذلك فاني اعلّم. وانا ، ايضا ، لا بد لي من ان يكون لديّ ما اقوله .

الخلاص عن طريق الطبيعة : لعل هذا ما يكمن فيه تفوق الفكر الغربي الديني على علوم ما وراء الطبيعة في الشرق الاقصى وعلى الفلسفات الحديثة. فالظواهر الطبيعية بالنسبة للشرقيين ليست شيئا وينبغي انكارها. اما في الفكر الغربي المعاصر فالظواهر ، اي الوجود، هي كل شيء ؛ وليس شيء وراءها . اما في الفكر الديني المتوسطي والاوربي فالروح الالهية تتجلى في الطبيعة وتعطيها واقعية حتى تضحي الكائن الاكبر . حرية الحب الالهي . سخاء. العالم حقيقي ، « موجود » ، مخلّد .

اذا حللنا تركيب القلق ، لم يعد ثمة قلق . ويتم هذا التفكيك بتحديد اسباب القلق وتوضيحها . واذا فككنا تركيب الشهوة زالت الشهوة . هذا ما ترمي اليه البوذية ، كما نعلم . والى هذا ايضا يهدف علم معالجة الامراض النفسية الحديث ، ولو انه لا يعترف بذلك .

يذكّرني ز. باننا لسنا في الجنة وان كل ما نستطيع عمله هو ان نتوصل الى طريقة ما نستطيع بواسطتها ان نتحمل ما يلوح للبعض ، ولي انا ، غير محتمل . اعرف ذلك من قبل ؛ ونعرفه كلنا . ولكنه امر مزعج حقا . انني احاول ان اعود الى الفردوس. وهل نستطيع العيش الا بطريقة فردوسية؟ العيش بطريقة مغايرة غير معقول . انا لن اقبل الا الاستقرار الاكيد الدائم .

لاعد الى الازمة المعاصرة فيما يتعلق باللغة : في الواقع ليست ثمة ازمة في اللغـــة . اقصد انها ، بمعنى من المعاني، غير موجودة . انعدام الاتصال ليس مشكلة فيما يتعلق بيني وبين ذاتي . في المجتمع كل شيء قابـــل للتفاهم والايصـال. ما يفكر بارث بانه لا يستطيع ان يقوله الى السيد ج. ج. غوتييه، وما يقولون ان السيد ج. ج. غوتييه يعتقد بانه لا يستطيـع ان يقوله الى السيد غي‌دومير، مجرد كلام فارغ. الدعاية تشوه القضية؛ ثمة سوء تفاهم مقصود او في بعض الاحيان غير مقصود ، ولكنه يمكن ان يزول بسهولة اذا كان كل امرىء مستعدا استعدادا صادقا لان يحدد مفرداته ويفسر عباراته بامانة ودقة . ان الانسان لا يريـــد ان يسمع ما يخاه الانسان ، ولا يريد ان يفهمه ، ولا ان يرتضي به . انه يرفض ذلك اطلاقا . ومع ذلك فان مفردات واللغة الفرنسية الراضحة والدقيقة موجودة وجاهزة لتقول ما نريد ان نقوله . ولكننا نخفي افكارنا قصدا في الوقت ذاته الذي نعبر فيه عنها ؛ يبدو ان في هذا الكلام تناقضا ، ولكن التناقض موجود اينما كان . في ايام موليير ـ وموليير لم يكن ابله ولا قليل المواهب كما يصورونه اليوم ـ كان التحذلق والتصنع يشوهان الفهم . ولكن المتحذلقين كانوا يرمون عن قصد الى انشاء لغة غير مفهومة ؛ كانوا يريدون ان ينفصلوا وان يكونوا مختلفين عن الآخرين . وفي عصرنا هذا ايضا الانفصال والاختلاف مقصود متعمد . فلم يعد الانسان يريد ان يفهم ، ولا ان يفهمه الآخرون ، باستثناء مشايعيه . ومع هذا ، فاني اظن انه لم يعد احد يعتقـــد بازمة اللغة . علوم الكلام القليلة القائمة ، اي بعض الفلسفات والمبادىء الرائجة ، قد فكت طلاسمها .وبوسع الانسان ان يقول ما يريد قوله . كل ما بقي مستعصيا على القول هو ذاك الذي يرفض ان يقال . الجوهر . الخلاصة انه يكفي تنقية اللغة الفرنسية من شوائب التحذلق والدعاية الايديولوجية، اي من بعض العبارات التي تحرف حقيقة الواقع عن قصد وتجسد غش السياسيين (وهذا ما نستطيـع ان نلمسه في التعليقات على الحوادث العالمية كما توردها الصحف وفي المقالات والدراسات التي « تحلل » الوقائع « وتوضعها » في اطارها الستراتيجي والتكتيكي) . كل شيء يمكن ان يقال بوضوح ، شرط ان يكون مستوعبا بوضوح ، ولم نُتمنع من قوله ولم نحجب عنك الحقائق عن عمد. ولا يبقى اذ ذاك الا التفوه بالحقيقة، ولا يبقى الا التعبير عما لا يمكن التعبير عنه . وهذا مستحيل . الا ان انعدام الاتصال الذي يتحدث عنه اولئك الذين يتكلمون على ازمة اللغة واستحالة الاتصال والتفاهم ، هو قابل للايصال والفهم الى حد كبير .

اي ابله واي غشاش واي منحط هو أ ! يمكن القول عن اي انسان انه ابله وغشاش ومنحط ؛ نستطيـع ان نؤكد ذلك عن جميع الناس وعن لا احد . وراء كل مظهر من مظاهر الانحراف ، او كل لون من الوان الشهوة، وفي قلب كل مجرم، وخلف كل ما يلوح لنا بانه غيرة وخيانة وجبن، هناك سعي وحنين وتوق مبهم الى المطلق ـ اكثر احيانا مما نجده وراء كافة ضروب الفضيلة والاخلاص .

انهم كطيور بلهاء قليلة الاحساس مفترسة . عالم من الطيور المفترسة . وانا ذاتي الوح كذلك الى الآخرين، هذا ما انا بالضبط بالنسبة اليهم . في بعض الاحيان تتكشف فظائعنا المخبأة وتتدفق ، وتظهر اعماقنا الجهنمية الفظيعة . لقد ذهبت سدى الجهود التي بذلت للكشف عن اسباب الحقد والتخلص منه . كيف نستطيـع ان نتخلص ابداً من جهنمنا هذه ؟ اني اخيف نفسي ، وكلما وقع بصري على وجه جديد اشعر بالرعب واتساءل: هي جهنم ، اي ضرب من الجحيم ، يختبىء وراء تلك الواجهة ؟

ان ما نعرفه عن امرىء مـا هو ، اولا ، تهذيبه وتحفظه . ينبغي الا نذهب الى ابعد من ذلك ، لاننا نكون معرضين لخطر الوقوع في الهوة . من قتلت ، في ضميرك على الاقل ، انت يا من تتزيى بثياب الاحد الفاخرة ؟ وانت يا جميلتي ، كم مخلوق اردت قتله ؟ ومن تريدين ايضا ان تقتلي ؟ هل تريدين ان اضع نفسي تحت تصرفك لوضع حد لحياة الاشخاص الذين يقفون في طريقك ؟... وبما ان العالم ليس جنة ، فهو لا يمكن الا ان يكون الا جهنما ـ الا اذا توصلنا الى القضاء على الشهوات . حيث تكون الشهوة يكون الاخفاق والخيبة

وعدم الارتواء ـ وجهنم . من ثمة لا يشتهي كل شيء ، حتى ولو لم يكن عارفا انه يشتهي كل شيء ؟ ان العالم لا يخصني انا ؛ لا شيء ، لا احد ، يخصني : من هو الحكيم الذي يقبل بذلك من كل قلبه ، الذي يقبل بالا يمتلك شيئا في هذا العالم ؟ احلم بابطال سباق يدعون بعضهم بعضا لدى اطلاق اشارة الانطلاق بقولهم : « بعدك، سيدي ، اركض امامي » . «لا ، غير معقول ، انت اولا وانا من بعدك ».

غير ان الهدف المرئي للسباق ليس الهدف الحقيقي . ان من يريد ان يكون الاول (ومن لا يريد ان يكون الاول ؟) وينال السبق هو شخص منحط . ولكن الهدف الحقيقي ، الذي يختفي وراء الهدف الظاهر، والذي نتوق اليه اكثر من التوق وعلى الرغم من التوق، يبرر وجودنا ويفدينا (ليس اخلاقيا ، اذ ما هي الاخلاقيات ؟) ، لان الهدف الحقيقي يشهد باننا في الحق قد تجاوزنا محدوديتنا وقصورنا .

انا اجد الحياة مليئة بالآلام . وككل مريض اعصاب اتعلق بمرضي واعتاده واحبه ولا اريد ان اشفى منه . ومن هنا يأتيني ذلك الفزع وذلك الرعب الهائل الذي يسيطر عليّ عندما يخيم الليل .

رغبة ملحة في قتل الشيوخ . الشيوخ يثيرون قرفي . الشباب قليلو الذكاء وبلهاء . لقد كنت دائما اكره الشباب ، وعلى الاخص عندما كنت انا نفسي شابا . ان التقرب الذي يبديه قادة الفكر نحو الشباب ، بحثا عن زبائن وحواريين، يؤلم النفس اكثر مما يؤلمها اي شيء آخر. اي نقص في الكرامة ، واي خساسة واي تفاهة !

الماضي وراءنا والمستقبل امامنا . لا نستطيع ان نرى المستقبل، لكننا نرى الماضي . وهذا امر غريب، اذ ان اعيننا ليست في ظهورنا . انا حيّ . الغرفة حارة . النور مضاء . اتناول كتابا . عندما اشعر بالفزع الشديد التجيء الى اللحظة التي انا فيها . ملجأ مقلقل .

عدائية الشباب. تعلق الشيوخ بالحياة . العدائية تتطلب من الجهد ما يتطلبه التعلق ـ وربما تطلب التعلق جهدا اكبر .

خيالي نشيط . انا مضطجع ولكني مستيقظ ؛ اري من جديد الحائط الذي اراه في احلامي . ها هو هناك. انه يرمز فيما يرمز الى الانفصال عن نفسي. وهو يرمز ايضا الى ما يفصل بيني وبين الحقيقة، او بيني وبين معرفة الحقيقة معرفة اكثر دقة واشد اتساعا . يجب ان اعرف ماذا يوجد وراءه . الباب الصغير المقفل لا يزال هناك ، الى اليمين . اقترب من الباب وانظر من ثقبه : فاشاهد عينا ترقبني . فاتراجع. ثم اقترب وانظر من جديد . فاتلقى رشاش ماء على وجهي وفي عينيّ .

نخشى جميعنا ان نكون قد اضعنا حياتنا سدى . ان ذاك الفيلسوف المزيف ، ذا الوجه الشديد البشاعة والذي تثير شخصيته الاشمئزاز، والذي لم يأتِ بشيء جديد في الفلسفة، اذ انه لم يحاول اكثر من التوفيق بين الوجودية والماركسية (والذي استطاع ان يعارض السلطات بدون خطر وبكل حرية ، ذلك لانه في بلد يفسح صدره للمعارضة ـ ولو ان معارضته لا يصح ان تدعى كذلك ، اذ انها تكتفي بالانسجام مع النزعات الرائجة التي تعبر عن حسد البرجوازيين الصغار للبرجوازيين الكبار الاثرياء ، وهو عداء تفسح السلطات المكونة من الطبقة العليا صدرها له لان ذلك في النهاية يدغدغ كبرياءها ويتملقها) ، ذاك الفيلسوف الكبير ، اذاً ، الذي آل به الكشف عن احقاده وضغائنه الى اكتساب الثروة والاحترام والشهرة العالمية ، في حين ان ما يستحقه فعلا هو الاحتقار ـ يتكلم في احد كتبه بحزن عن انه قد بذر حياته .

ولكن هذا الرجل الآخر ، الذي خرج لتوه من السجن بعد ان قضى فيه عشرين سنة من حياته لاسباب سياسية ، والذي قضى سبع سنوات من هذه العشرين لم يكن يسمح له فيها ابدا بمغادرة زنزانته فعاش لذا في انفراد تام ووحدة كاملة ، ـ لا يشكو من انه اضاع حياته سدى . هو في الثانية والستين من عمره ، صحيح معافى ، ولا يبدو انه قد تطرق اليه اي هرم ؛ ويشعر بان حياته كانت ملأى ، لا بل انها تبدأ الآن من جديد . لم يكن مسموحا له ان يقرأ ولا ان يكتب ، مما مكن ذاكرته من ان تنمو نموا هائلا . ولما كان عالم رياضيات ، فقد استطاع ان يفكر في معضلات رياضية وان يحقق اكتشافات في هذا المضمار .

ولدى خروجه من السجن اتصل هاتفيا بعائلته وباصدقائه وعلم بان امه واخته وصهره قد توفوا في اثناء وجوده في السجن ، وان اكثر اصدقائه كانوا قد اصبحوا وزراء وكتّابا كبارا يتمتعون بامتيازات خاصةمن قبل حكومة بلاده ، وقد توفوا هم الآخرون . ومن بينهم كثيرون اعتبروا قبل وفاتهم بانهم قد اضاعوا كل حياتهم سدى . ولكن لم يستطع شيء ان يأتي على فرح السجين الذي اطلق سراحه ، والذي حال خروجهمن السجن اخذ يقرأ المجلات والكتب الرياضية المعاصرة ليرى اذا كانت اكتشافاته تتوافق مع الابحاث الجديدة في الرياضيات .

وهذا الآخر ، العالم الموسيقي الذي قضى خمس عشرة سنة في السجن وبعض السنوات ، هو ايضا ، في الانفراد ، قد خرج مؤخرا من السجن وهو مليء بالثقة بالنفس : وهو الآن منكب على كتابة التآليف الموسيقية التي فكر فيها في سجنه. انه يعيش في قرية صغيرة من قرى السهل . وهو لا يكره احدا ولا يحقد على احد ولا يشتكي من انه اخفق في حياته . ويقول الناس عنه انه شبيه بالقديس . ان للحبس الانفرادي حسناته . ونحن نعلم منذ القدم بان الزهد يطهر ، اي انه يجعل الانسان هادئا وحكيما .

وثمة ايضا شخص ثالث اوقف وحكم عليه بالسجن بضعة اشهر لانه فوجيء في احدى البلدان ذات النظام الدكتاتوري وهو يقرأ الجريدة الفرنسية « له موند » . وبعد اشهر قليلة تبنى البلد نظاما اكثر ليبرالية ونال حرياته . وماذا وجد هذا الرجل بعد بضع دقائق على خروجه من السجن ؟ د كانا مليئا بالصحف ومن بينها جريدة « له موند » التي كان يستطيع ان يشتريها اي كان بلا حرج ! فقال الرجل في نفسه : « كان عليّ ان انتظر . هذه عاقبة من يصر على ان يحصل على آخر الاخبار » ! قال هذا بدون مرارة نحو سواه او نحو ذاته . لقد كان راضيا بقدره.

الاناس الذين ليسوا داخل المعتقلات، والذين يعتقدون انفسهم احرارا لان بوسعهم ان يتنقلوا انى شاؤوا، هم وحدهم الذين يشعرون بالمرارة والحقد والحسد والتشاؤم وعدم الاكتفاء . ويبدو انه لا يوجد سوى الدير او السجن لانقاذ النفوس او (اذا شئنا ان نستعمل تعبيرا حديثا) لشفاء الامراض النفسية .

التبرير الوحيد لكلامي على نفسي اني اقف منفصلا عن نفسيواني اتكلم على نفسي كأني اتكلم علىشخص آخر ، كما لو اني اعرض حالة غريبة يمكن ان تهم علماء النفس وسواهم . اقول هذا القول واتساءل اذا لم يكن ذلك تبريرا منافقا ؛ ولكن قد تكون لكل حالة ، حتى حالتي انا ، اهميتها - ان عالم اي انسان ، اي كائن ، حتى النملة ، قد يكون شائقا . ان عالم كل انسان هو عالم شامل عالميّ .

الفي نفسي على قمة تلة . من دوني في البعيد حرج او غابة كثيفة. الاعشاب كثيرة ولكنها رمادية اللون، شأنها في ذلك شأن الحرج والسماء ؛ ومع ذلك فثمة نبات وعشب كثيف ، ورطب ربما . (قال لي ز . بان وجود النبات شارة فأل حسن) . على قمة هذه التلة او هذا الجبل محطة صغيرة وقطار ذو عربات مكشوفة استقله. لا ارى اي ركاب آخرين. استقر مضطجعا في احدى العربات المكشوفة ، ويتحرك القطار متئدا فيهبط المنحدر . واشاهد في الاسفل وفي اقصى الخطوط التي كانت تتألق من قطرات المطر عليهانفقا شديد الظلمة . يعتريني شعور ببعض القلق . نحن الآن في اسفل المنحدر ، قريبا جدا من مدخل النفق . تدخل

القاطرة ، وتتبعها العربات ؛ وبدورها تدخل عربتي المكشوفة في النفق المظلم . يتزايد قلقي شيئا فشيئا . ولكن ما ان يضحي داخل النفق حتى يختفي . تحيط الظلمات بي من كل جانب ؛ ليس من كوة لا عن يميني ولا عن يساري ولا فوقي ، حيث يوجد سقف مظلم نصف مستدير . العجيب ان قلقي اختفى تماما ؛ فلم اعد اشعر باي خوف بل على العكس شعرت بالانشراح . هناك في الظلام ، والقطار يسير متئدا ، احس بالانبساط والسعادة والامان والاستقرار الكامل . خرجنا من النفق : نور رمادي ، وبيت صغير يشبه محطة غريبة ، ونبات اسود . وعند ذلك استيقظ .

انا و ر . في الشارع : انه شارع يظهر انه في باريس لكنه ليس فيها . ان هذه المدينة تشبه باريس او زوريخ وتشبه شيئا ما شوارع اثينا الكائنة في اسفل الاكروبول. وهي ايضا تشبه هذه المدينة الخيالية تماما التي اتجول فيها خلال احلامي . اقول لـ ر. باننا سنصل بعد قليل الى محطة التراموايات قرب النهر او مجرى الماء ، الذي يشبه السين قليلا، او بحيرة زوريخ ، او مجرى ماء آخر . نستقل الترامواي ، الذي يسير بنا متئدا نحو المدينة العالية الكائنة في الجبال . انه شيء بين الترامواي والتلفريك . هذا الحي اعرفه او هذه المدينة بمنازلها المعلقة عاليا في الجبل ؛ انه يجعلني مطمئنا لانه عالٍ حقا. يمر الترامواي او القطار او التلفريك برؤوس جبال ضيقة جدا لا محل فيها الا لخطوط القطار. ونمر على جسر ليس اوسع من عبّارة، ونتسلق جبالا تمتزج فيها الاشجار بالمنازل . ثم ننزل ، ونجد انفسنا من جديد في المدينة السفلى . كنا قد صممنا على تناول الغداء في البيت ؛ بيتنا هو هذا النزل الصغير حيث نعيش في غرفة صغيرة كغرف الطلاب . نفتش عن خبز . ادخل الى فرن ، اتناول نصف رغيف اعطيه الى ر. واقول لها بانني التقيت منذ هنيهة باصدقاء ودعوتهم بصورة عفوية للغداء معنا . فتغضب ر. وتحتج وتلومني على انني قمت بهذه الدعوة بدون تفكير . قالت : « ليس عندنا من الخبز ما يكفي ، والافران لا شك قد اقفلت » . ويحمى وطيس الجدال ، فاحاول ان اهدىء من روعها ، واقول لها بانه ما عليها الا ان ترجع الى النزل ريثما اقوم انا بالتفتيش عن الخبز وحدي. واقودها الى قفص المصعد ؛ وعندما كانت وراء الشباك وحنا نتبادل التهم العنيفة ، فتقول او اقول : كيف نستطيع المثابرة على العيش معا بعد كل الذي قلناه ؟ وتختفي عن ناظري. واشعر بالندم واشرع افتش عنها وانا خائف الا اجدها قط . واصل الى بيت آخر اتأكد ، ولا ادري لماذا ، بانها موجودة فيه. امام الباب كانت تقف الحاجبة ـ قالت: « لا تستطيع ان تدخل الى هنا . ثمة حفل كوكتيل ، ولكنه كوكتيل مزيف. انه في الواقع فخ منصوب من قبل البوليس الذين ارادوا جمع الناس هنا ليعتقلوا بعضهم ويأخذوهم رهائن . انت ور. كلاكما على اللائحة. لا تدخل . اهرب » . ولكن مهما يكن من امر فانني لا استطيع ان ادع ر. وحيدة في هذا الكمين . يجب ان اراها من جديد مهما كلف الامر . اتسلل الى الداخل ، وابحث عنها فاجدها بين الجمع ؛ وكان البوليس قد حضروا . آخذها من ذراعها ، وبينما يبدأ البوليس بتوقيف الناس بعد ان يتفرسوا فيهم بعناية، اتوصل الى الخروج من باب خفي وانا لا ازال امسك ر. من ذراعها . ونجد نفسينا في الشارع خلف المنزل مع شخصين او ثلاثة استطاعوا هم ايضا ان يلوذوا بالفرار . انها جالسة على الرصيف ، ثم في عربة قطار مكشوفة . هل سيتحرك القطار ؟ اذا تمكن من السير قبل وصول البوليس الذين يفتشون عنا كتبت لنا النجاة بلا شك . قالت لي ر.: « سيان عندي ان يعثروا علينا او لا يعثروا ، ان يطلقوا النار علينا او يتركونا نذهب . سيان عندي اذا عشت او اذا مت » . واضافت وهي تعانقني :«انني احبك وانك تحبني . لقد قيض لي ان اتعرف الى الحب . الحب هو اقوى من كل شيء . لقد اعطيت كل شيء يمكن اعطاؤه وحققت كل شيء يمكن تحقيقه ، وقيض لي ان اتعرف الى الحب . ان الحياة والموت سيان عند من يختبر هذا » . انني فرح جدا لانني اخيرا اعرف الحقيقة ، اعرف الجواب . وشيئا فشيئا يبدأ القطار بالسير وهو يقلنا . ونبتعد ببطء ؛ لا نزال نرى البيت اول الامر ، ولكننا لا نعود نراه . لقد نجونا. وهنا استيقظ . سعادة كبيرة تدوم ربع ساعة ، اي الى الوقت الذي استيقظ فيه تماما وامتزج بالحياة اليومية. فاقول في نفسي : لا يمكن ان يكون ذلك صحيحا ، واشعر بالكآبة من جديد .

لولا الموت لما كان احد يحقد على احد ولا كان احد يحسد احدا . كان احدنا ليحب الآخر، وكل امرىء يستطيع ان يبدأ من جديد بلا نهاية وان يحقق شيئا ما من وقت لآخر، فينجح في محاولته المائة او الالف. ان عدد المرات التي لا نهاية لها التي يعيد فيها امرا من الامور سيمكنه من النجاح . اننا نشعر بانه لا يتيسر لنا الوقت لنجرب حظنا الى ما لا نهاية له . حقدنا هو التعبير عن قلقنا ، عن ضيق وقتنا . الحسد هو التعبير عن خوفنا من ان نُهجر : ان نهجر في الحياة ومن ثم ان نهجر في الموت. لكي نستطيع ان ننجز رحلة الحياة يجب ان نتقدم فيها يداً بيد . حتى في تلك الحالة ...! يقولون لنا بان كل كائن يحتاج الى حب وباننا لا نستطيع ان نعيش بلا حب وان اكبر مصيبة هي ان نشعر باننا غير محبوبين . كل عالم نفساني يعلم ذلك. ان الحب هو جونا الحيوي وخبزنا اليومي . ولكن واأسفاه ، ان الجو موبوء والخبز مسمم .

ما هو السبيل السوي ؟ قد يكون في اللامبالاة . ولكن ذلك غير ممكن ؛ فبما اننا موجودون في هذه الحياة، فاننا لا نستطيع الا ان نسهم فيها ؛ ولا نستطيع ان نبتعد عن مظاهر الحياة ، طالما اننا مغموسون فيها . فلنعتبر اذاً ان كل شيء في هذه الحياة هو دعابة مسخنة ولنعمد الى الضحك منه . ولكن في ذلك تجديفا على الله والعالم . نحن لا نستطيع ان نخلق فوق العالم ، ولا نستطيع ان نكون اعلى من الله، ولا نستطيع ان نزدري بالخالق ، ولا نستطيع ان نكون اقوى منه . ان ذلك لضلال . دعابة ؟ اننا لا نستطيع ان نرفض العالم . اذاً لننظر الى كل شيء نظرة جدية : ولكن ذلك مضحك ايضا . ان روح الجدية تقتل ، والنفس الرصينة هي متحزبة وتشوه . لنقبل الحياة اذاً كما هي وكيفما تأتي الحال : ولكنهم لا يدعوننا نفعل هذا . الانتحار اخفاق غير مقبول ، وواجبنا ان ننجح وننتصر . والقول بان العالم عبث في عبث ، قول مضحك ايضا : فنحن لسنا اذكى من الشرائع التي تتحكم بالعالم . ومن العبث ان نقول بان كل شيء هو عبث . فاين هي مقاييس العبث ؟ فاذا قلت بان كل شيء ليس عبثا ، فانني اعرف ما ليس عبثا . اذاً فلا يمكن القول بان العبث موجود . « الالتزام » ؟ ولكن ذلك يعني النظر الى الجزء على انه الكل ، وذلك يعني اتباع سبيل الضلال والخطأ . لنتقبل الحياة كما هي ، ولكن بدون ان نحددها لان تحديدها يفترض اصدار حكم، ولا استطيع ان لا اخطىء عندما اصدر حكما، لان الذكاء الانساني هو محدود . لنغص في التفاصيل ؛ لنفعل هذا لا ذاك: لكنني في هذه الحالة منعزل ، منقسم على نفسي ، ومفترق عنها ، في اغتراب . كن شجرة : لست شجرة . عش وفقا لاتجاه التاريخ ، اي وفقا للسباق الكوني . ليس من يعرف ماذا يعني ذلك . الافتراض ليس اختيارا قائما على اليقين. الرهان الباسكالي؟ لكي يراهن الانسان يجب ان يعلم لمن يراهن وضد من وضد ماذا، وانا لا املك المعلومات اللازمة للرهان . ومع هذا فان علينا ان نشعر بالاستقرار هنا، بطريقة من الطرق . لكني لا استطيع ذلك ، اذ ان العيش هو نفسه الذي يخلق فيّ القلق ، والعيش يعني العيش في جو من القلق . بل انني لا استطيع ان اجزم بذلك ، لانني اجهل اسباب القلق ، واجهل ما الذي اعنيه حين اقول القلق . القلق هو الجهل ؛ وعدم القلق هو الجهل ايضا . كما اني لا استطيع القول بانني لا اعرف شيئا ، لانني لا اعرف ما تعنيه كلمة « اعرف »، ولا اعرف ما تعنيه كلمة « تعنيه ». يلوح لي انني ادور وادور . من المحتمل انني لا ادور . من المحتمل انه ليست ثمة دوائر . لا استطيع ان اضحك، ولا ان ابكي ، ولا ان اجلس، ولا ان اتمدد، ولا ان انهض، ولا ان اشتهي، ولا ان لا اشتهي ـ اذ ما الذي نشتهيه وما الذي لا نشتهيه؟ انني مشلول. لا استطيع حراكا. ولكن (ان لم اكن مخطئا) يلوح لي انني اتحرك.

واشعر ايضا بان هناك احدا ما ، ضربا من الضمير الاعلى ، يضحك لا شك منا . ربما لا يضحك الضمير منا . اشعر بانني لا اشعر ؛ لا اشعر بانني اشعر .